البيدر ناس

« لكل عصامي نصيب »

بدأ بالتجارة طفلا ، وذاق مر الغربة ، وعمل ١٦ ساعة في أيامه

كتب عبد الباسط خلف :

استجمع عمر الشايب ، ابن الثامنة والأربعين ذكرياته المتناقضة ، وأخذ يتحدث عن رحلة حياته العصامية ، وكيف انطلق من «دون الصفر» ليستطيع الوصول إلى قمة أحلامه وتأسيس عمل تجاري ناجح ...

بدأ الشايب يتذكر حكايته مع المدرسة ، وكيف أدى ضعفه في الإملاء وقلة ممارسة القراءة للإطاحة بمستقبله الدراسي ، رغم تفوقه في الرياضيات والعلوم ، إلا أن عدم فهم المكتوب أو إعادة كتابته أزاحه عن الدراسة في الصف السابع ، بعد أن رسب سنتين ، لتبدأ طفولته رحلة شقائها .

التاجر الصغير

«كنت مولعا بالتجارة منذ صغري ، وأسست عدة بقالات متواضعة مرات عديدة، وافتتحت دكانا مستقلا وأنا في السادسة عشرة من عمري، وقبلها وخلال إجازة المدرسة كنت أبحث عن أعمال تمنحني التفكير التجاري، وانتقلت في طفولتي للتجارة في الزيتون» على هذا النحو يستهل التاجر الأربعيني عمر الشايب حكاية عصاميته واعتماده على ذاته وسط ظروف صعبة ، فقد انتقل لاحتراف مهنة التبليط والقصارة وأعمال الإنشاءات العمرانية، خلال بداية العشرينيات من عمره، ثم دفعته الظروف لإنشاء دكان لتأجير الدراجات الهوائية مطلع السبعينيات خلال إجازة الطلبة من مدارسهم، رغم افتقار بلدته المتاخمة لجنين لشبكة مواصلات تساعد السائقين الصغار على قيادة مركباتهم الهوائية أو الالتفات إلى قواعدها المرورية.

بين الدروس والورشة

توقف عن الحديث لبرهة ثم يستأنف تحوله للتعلم في مدرسة صناعية، عرف خلالها الفرق الشاسع بين الكتاب وأدوات العمل الشاق، وبعد تخرجه تحول للبحث والتدريب لتطبيق ما حصل عليه من معارف ومهارات، فاتجه لداخل الخط الأخضر، وبدأ بممارسة ما تعلم، دون الحصول على أي مقابل، وفي الغالب، كان كل يوم يبدل الورشة كون أصحابها لم يكونوا على قناعة بعمله غير المتقن والمتواضع.

نحو الغربة

يتابع: عدت لبلدتي ، وقد لازمني شعور بالهزيمة، إلا أنني تشاركت وصديق آخر في شراء أخشاب وافتتاح «مصلحة »للتعمير وكان عمري ٢٤ عاما، ولم تدم «المؤسسة» طويلا، إذ جهزنا نحو خمسة منازل ثم بحثت عن فرصة للهجرة لتحسين أوضاعي الاقتصادية التي كانت في ضائقة ، فسافرت إلى الأردن ، وعملت قليلا في الإعمار والحراسة وتنظيف الألواح الخشبية من المسامير، وبعدها فكرت في الحصول على فرصة أفضل في العربية السعودية.

يروي : وصلت السعودية وعمري ٢٦ عاما، ولم أكن أعرف أحدا في ذلك البلد الذي يذكرني دائما بالحر القائظ والبؤس ، ورحت والشمس الحارقة أبحث عن عمل وسط الصحارى الجافة إلى أن عثرت على عدة أعمال في تبليط وقصارة بعض الغرف المتواضعة، و شجعني كفيلي السعودي على العمل المنفرد، بعد أن أخذت خبراتي تتضاعف، وصقلت منهجية في العمل، وأصبح لدي زبائن يعرفون بي.

يقول: عملت لمدة عام في السعودية، وعدت لبلدتي، وشرعت في إنشاء منزل متواضع، وتعرفت على فتاة من بلدة مجاورة ، وعقد قراني ثم عدت لعام آخر، قبل أن أتزوج، وأصبحت أتنقل بين الوطن والغربة كل سبعة أشهر مرة، ولمدة ست سنوات.

١٢ ساعة في الصحراء

«لم أكن ألتفت لشيء هناك وكنت أتجاوز الصعاب، ووضعت نصب عيني بناء ذاتي لأن الأعمال في الوطن لم تكن موفقة بالنسبة لي، إلى أن عدت لبلدتي وشرعت في مزاولة أعمال حرة».

وفق هذا النحو يتابع الشايب روي حكايته مع الغربة التي كانت تنال أحيانا من جسده ومن راحته ، وكان يسكن في غرفة متواضعة شديدة الحر، ويعمل ١٢ ساعة في صحراء ملتهبة لم تكن تؤثر على جسده فحسب وإنما على نفسيته ...

يضيف : كانت الدماء تنزف من أصابعي لشدة العمل ووطأته، غير أنني كنت أتحمل ما يعترضني، لأن البدائل ستكون أقسى، وأصبحت أنسى أحيانا أن لي جسداً من شدة الإعياء والإرهاق.

تنمية تجارية أيضا

عاد الشايب عام ٨٥ إلى قريته برقين، حيث تمتزج جذور الزيتون العتيقة بذكريات السيد المسيح وحكايته مع كنيسة القرية، التي تعد ثالث أقدم مكان مقدس لمسيحيي العالم، وأخذ يهتم بتأسيس عمل خاص به، فأنشأ بنفسه غرفة متواضعة انطلق في تجارته من خلالها، واستخدم خلال البناء أدوات بسيطة، وافتتح محلا تجاريا لكل الأصناف وتساعد فيه مع زوجته وشقيقه الصغير نصار، ١٥ سنة في حينها.

يروي: كنت بدوري أتجه للعمل إلى داخل الخط الأخضر، وفي كل يوم سبت ألبي ما ينقص الدكان وأساعد زوجتي وأخي في العمل وتسيير شؤونه، وبدأنا بتنمية أنفسنا بأنفسنا.

وبعد عدة سنوات افتتحنا محلا لبيع المواد الزراعية والأدوية ومستلزماتها للتسهيل على سكان القرية الزراعية التي لم تكن تتوفر فيها منشأة كهذه رغم الحاجة الماسة إليها ، وخلال ذلك كنت أجهز بنفسي بضائع للبيع خاصة بطلبة المدارس ، وغالبا ما كنت أعمل أكثر من ١٦ ساعة بين المدرسة والخط الأخضر والدكان .....

القمة

تحولت لاحقا ، للعمل في جنين وابتعت محلا متواضعا ثم بعته وانتقلت لآخرين أكثر اتساعا ، وبدأت وإخوتي في الاتجار بأصناف جديدة من المواد الاستهلاكية، واليوم أصبح لدي أربعة عمال وسيارة توزيع وثلاثة محلات ومخزنان بفضل الله، وبعصاميتي وتحملي للمشاق، واتجهت للتخصص في تحميص القهوة وتعليبها، وكنت بنفسي أطبع أوراقاً دعائية وأوزعها على المتسوقين في شوارع المدينة إلى أن أسست قاعدة عريضة من الزبائن.

يستمر في حديثه، ويعود ثانية للمدرسة ، التي كان يعشقها، لكنه لن يجبر أولاده الثلاثة على مغادرة مقاعدها باكرا، وسيفكر في تعليمهم دراسات عليا، لأنه ذاق طعم الشقاء المر، وأصبح الثلاثة يساعدون والدهم في أوقات فراغهم وعطلتهم المدرسية ، وينتشرون لتوزيع السلع في حافلتهم عبر عدة قرى مترامية الأطراف في المحافظة، لينقل لهم حينا قصصا من معاناته وعصاميته ويتذكر أحيانا أخرى حال العصامي من عائلة مقدسية، كان يدرس في جامعة أمريكية، ويبيع لزملائه الطلبة المسليات ويعمل في مطعم ومؤسسة تجارية، ولا يعرف غير نوم ساعتين في نهاره إلى أن أصبح طبيبا ... وكأنه يقول بملء فيه: لكل عصامي نصيب.

أطفال الخليل...نهار بلا لعب وليل بلا أحلام

يافا للإعلام / اكرم النتشة

لم يعد ليل الطفل محمد فايز الرجبي ابن السبعة أعوام منذ عام للنوم والراحة بل ليلا للكوابيس والأحلام المزعجة والقلق وخيالات وأوهام عن أشخاص وأشباح بسبب منع التجول المتواصل وممارسات وإجراءات الاحتلال في البلدة القديمة في الخليل.

تصف والدة الطفل محمد حالة ابنها وتقول: لقد بدأ يظهر على فايز منذ اكثر من عام أعراض توتر واضطراب نفسي على شكل أوهام وكوابيس وخيالات حول أشخاص وأشباح غير موجودين إضافة إلى شعور بالملل والمزاج السيء في كثير من الأحيان وعدوانية تجاه أفراد العائلة ومن يتعامل معهم، كما بدأت تظهر عليه منذ ذلك الوقت مشكلة التبول اللاإرادي.

ولم تنته الأعراض عند هذا الحد لدى فايز حيث اصبح كما تؤكد والدته يعاني من خوف شديد من جيش الاحتلال فما أن يرى أي سيارة عسكرية إسرائيلية أو يسمع طلقات نارية (التي كانت تسمع بشكل يومي قرب البيت أو يسمع حتى كلمة «جيش») حتى تظهر عليه علامات الخوف الشديد و يحاول الاختباء.

وتضيف أم رائد الرجبي والدة الطفل أن هذه الاعراض لا تزال على فايز حتى الآن منذ بدأنا بعرضه على أطباء المسالك البولية في مستشفى محمد علي المحتسب للأطفال وأطباء الأطفال لمنظمة أطباء بلا حدود و العديد من الأطباء منذ بداية شهر حزيران العام الماضي، واستمر الفحص الطبي ثمانية اشهر وتبين أنه لا يعاني من أي مشاكل عضوية، لنتوجه بعد ذلك إلى العلاج النفسي والاجتماعي.

شيرين أبو ماريا الأخصائية النفسية من برنامج الخليل للصحة النفسية والمجتمعية أكدت أن حالة الطفل فايز ناتجة عن الخوف الشديد وقالت انه بعد دراسة الحالة تبين أن أسرة الطفل فايز تسكن في منطقة تتعرض باستمرار لاعتداءات.

وقالت الأخصائية النفسية إن حالته ليست إلا نموذجاً لمئات حالات الاضطراب النفسي لدى الأطفال في البلدة القديمة من الخليل وذلك بسبب منع التجول المتواصل ومشاهد العنف اليومية التي يتعرضون لها.

أما عماد الطميزي مدير برنامج الخليل للصحة النفسية والمجتمعية فقال إن هدف البرنامج هو تعميم خدمات الصحة النفسية في محافظة الخليل وتحديدا في البلدة القديمة التي يقطنها اكثر من ٤٠ ألف نسمة تحت ظل منع التجول المتواصل.

وأكد الطميزي أن تعرض الأطفال لآثار الإغلاق والعنف الإسرائيلي وفقدان الأمن والاستقرار عند الأطفال يترك الآثار النفسية والسلوكية السلبية لهذه الأحداث حيث تترجم بشكل مباشر على تصرفات وسلوكيات الأطفال في هذه المناطق مثل حركة الأطفال الزائدة والشراهة في الأكل وفقدان الشهية أو العدوانية أو حالات التبول اللاإرادي وتدني التحصيل الدراسي وانخفاض مستواهم العملي.

وأضاف أن هذه الأعراض ناجمة بالتحديد عن حالات الخوف والقلق النفسي التي يعانيها الأطفال نتيجة ممارسات الاحتلال خلال انتفاضة الأقصى، موضحا ان البرنامج قام بمتابعة ٤ آلاف حالة كانت تعاني من الاضطرابات النفسية والسلوكية ضمن برنامج علاجي فردي واستشاري خلال عامين إضافة إلى ١٥٠ حالة عانت من أعراض ما بعد الصدمة النفسية الى الناتجة عن التعرض لحادث مفاجئ على الطفل وكانت قدرة الطفل النفسية لا تحتمل مثل هذه الحوادث كتعرض البيت لمداهمة مفاجئة أو أن يرى الطفل جريحا أو شهيدا يسقط أمامه أو أن يرى الطفل جنود الاحتلال ينكلون بشخص في الشارع ما يترك آثارا نفسية وسلوكية كعدم الأكل والاكتئاب و العزلة والحزن وفقدان الشهية.

وحول أثر منع التجول على الأطفال قال إن الإغلاق يضع الطفل في حالة من الضغط الانفعالي يمنعه من تفريغ الطاقة الزائدة عن طريق اللعب ما يزيد من حالة كبت المشاعر التي يصبح فيها الطفل يسلك سلوكيات تعويضية عبر العدوان والتكسير والأحلام المزعجة وما يزيد من حالة الأطفال سوءا هو جهل أولياء الأمور في الكثير من الأحيان في التعامل مع الأطفال في ظروف الإغلاق ومنع التجول.

وعن العلاج اللازم للأطفال قال إن العلاج يهدف الى إعادة حالة التوافق النفسي والاجتماعي للطفل حيث يتم بشكل فردي في مكان مناسب وكل حالة يتبع معها أسلوب خاص إضافة إلى تقديم توجيهات لأولياء الأمور في التصرف مع الأطفال في ظروف الضغط والإغلاق.

وقال رياض عرار مدير الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال فرع الخليل إن الأطفال في المدينة تعرضوا إلى تجارب وخبرات حطمت نموهم السليم مثل الاعتداءات المتكررة على البيوت ليلا أو التعرض للإصابة والضرب حيث اصيب في الخليل ٢٣٨٠ طفلاً حتى نهاية نيسان ٢٠٠٣ أو استشهاد أحد أفراد العائلة أو اعتقال الأب أو أحد أفراد الأسرة واعتقال الأطفال أنفسهم حيث سجلت الحركة اعتقال ١٣٩ طفلاً منذ بداية الانتفاضة حتى نهاية حزيران واستشهاد الأطفال حيث استشهد ٣٢ طفلاً في الخليل منذ بداية الانتفاضة.